العدد 487 Issue
الجمعة 7 جمادى الآخرة 1428هـ
Friday - 22 June 2007 22 يونيو

الكاتب المغربي التجاني بولعوالي في حوار مع «الوقت»:

المسلمون في أوروبا حائرون.. بين الغرب الأيديولوجي والإنساني

الوقت - نادر المتروك

الكاتب المغربي المقيم في هولندا التجاني بولعوالي يرى أنّ اندماج المسلمين العقلاني في الغرب هو المنهج الصحيح الذي يمكن بعده أن "تصمت أو تبح الأصوات المعادية لوجود المسلمين في الغرب إلى الأبد" كما يقول، وفي الوقت الذي يؤكد ضرورة التفريق بين الغرب الأيديولوجي والغرب الإنساني، فإن بولعوالي يرى بأن هناك محاولة لتقديم صورة نمطية غير صحيحة حول الإسلام والمسلمين في أوربا. وإذ يتحفظ بولعوالي على التقدمة المبالغ فيها لصورة المفكر طارق رمضان في المشهد الإسلامي الأوروبي؛ لأنه يُقدّم نظرة برغماتية وسلبية حول بعض القضايا الإسلامية هناك.

في هذا الحوار مع بولعوالي الذي أصدر كتاباً حول المسلمين في الغرب، نحاول تقديم جانب من أوضاع المسلمين في أوروبا، وطبيعة التحديات الحالية والمستقبلية التي تواجه الوجود الإسلامي هناك.

■ الكاتب المغربي التجاني بولعوالي

■ في البداية، ومن منطلق اهتمامكم البحثي بمسألة المسلمين والغرب، في أي سياق تاريخي وحضاري يمكن موْضعة الوجود الإسلامي الحالي في أوروبا، خصوصاً مع ملاحظة بُعدي العلاقة الأكثر من دموية بين الإسلام والغرب (المسيحي)؟

– في حقيقة الأمر، ينبغي أن نتجاوز ذلك التفسير الدّيني الحرفي المعهود لوجود المسلمين في الغرب، وهو تفسير ينظر إلى الأشياء بأسلوب إسقاطي لا يأخذ في الاعتبار المعطيات الجديدة التي يفرزها واقع المسلمين المعاصر، وهي معطيات ذات طبيعة تتراوح بين الثبوت والإشكال، ثابتة من حيث انبثاقها من التربة التي توجد فيها وتجذرها فيها، مما يستحيل تبديلها بشكل سريع ويسير، ومشكلة من حيث إن أي إقدام على حلها يزيد من استعصائها، فيما يتعلق بوجود المسلمين في الغرب، فإنه لم يصبح طارئاً أو مؤقتاً، بقدر ما أنه صار ثابتاً ودائماً، وحتى التخطيط الذي صمّم لوجود الأجانب في الغرب وجوداً مرحلياً، ينتهي بانقضاء مهمة اليد العاملة الأجنبية مُني بفشل ذريع، سواء لدى مختلف السّياسات الغربية التي ظلت تخطط طيلة أكثر من ثلاثة عقود لعودة اليد العاملة المسلمة والأجنبية إلى أوطانها الأصلية، أو لدى تلك اليد العاملة نفسها التي نزحت نحو الغرب لجمع بعض المال، ثم الرجوع إلى بلدانها قصد استثمارها هنالك في بعض المشروعات الصغيرة التي تساعدها على العيش في كرامة وأمان.

■ لابد من تشديد هذه العبارة.. إنك تقول إنّ وجود المسلمين في الغرب أصبح ثابتاً؟

– نعم.. لاسيما بعدما صار الحديث عن جيل بأكمله، مسلم العقيدة على رغم أنه غربيّ الولادة والمنبت والانتماء واللغة.. وهو لا يربطه بالعالم الإسلامي إلا شيء واحد، وهو أنه وطن آبائهم الذي ينحدرون منه، مما سوف يطرح معادلاتٍ جديدة، تقتضي تفسيراً فقهياً وسياسياً وثقافياً أكثر واقعية واستجابة لمتطلبات الحياة، وإلا فماذا سيكون مصير عشرات الملايين من المسلمين المستقرّين في الغرب، خصوصاً وأنّ الفقه المتشدّد يتمسك بأنّ ذلك الوجود خارج أسوار الوطن الإسلامي غير جائز.

الغربُ غربان.. أيديولوجي وإنساني

■ وكيف تعالجون هذه المسألة؟

– في اعتقادي، ينبغي الحديث عن أنّ وجود المسلمين في الغرب هو مكسبٌ عظيم للإسلام، وإغناءٌ لا مثيل له للثقافة الإسلامية المعاصرة، لاسيما وأن ثمة – حالياً – استجابة منقطعة النظير من لدن الغربيين للدّين الإسلامي، اطلاعاً واعتناقاً، ثم إنّ المسلمين في الغرب تمكّنوا، في العقد الأخير، من أن يشكّلوا حضوراً لافتاً داخل المجتمعات الغربية، اعترى مختلف الميادين، من ثقافيةٍ وسياسيةٍ واقتصاديةٍ وتعليميةٍ وغير ذلك، حتى صارت كثيرٌ من الأحياء في شتى المدن والعواصم الأوروبية توحي لك وكأنك في دولةٍ إسلامية، وهي أحياء تتوفر فيها كلّ المؤشرات على أنّ الإسلام حاضرٌ فيها بقوّة وكثافة، من مساجد ومدارس إسلامية وأسواق شعبية وقاعات الأفراح وجمعيات ثقافية وغير ذلك.

■ أفهم من ذلك أنه لم يعد ينفع إثارة السؤال التقليدي بشأن العلاقة المهجوسة بين المسلمين والغرب؟

– نعم، بعد هذا.. يمكن أن نخلص إلى أن العلاقة المهجوسة (التي أشرتم إليها في سؤالكم) بين المسلمين والغرب، لا وجود لها بذلك الشكل المضخّم، إلا على مستوى النقاش الأيديولوجي والتناول الإعلامي، فهي صناعة إعلامية مدعومة بما هو أيديولوجي معاد للإسلام، أو العكس، صناعة أيديولوجية مدعومة بما هو إعلامي معاد للإسلام، وحتى تتضّح الصّورة أكثر، فيلزمنا أن نفرّق بين نوعين من الغرب، أولهما ما نطلق عليه الغرب الأيديولوجي الذي يوحي بمفاهيم الاستعمار والهيمنة والاستعلاء والقوة وغير ذلك، وعلى هذا الصعيد يمكن الحديث عن العلاقة (الأكثر من دموية)، وهي محكومة بالمناخ الدّولي العام، وهذا لا ينفي وجود غرب آخر، يمكن نعته بالغرب الحضاري والإنساني، الذي يقدّم للإنسان شتى القيم الإيجابية والإنجازات المفيدة ونحو ذلك، وهو ذلك الغرب الذي هيّأ ملاذاً دافئاً لملايين المسلمين والأجانب، في الوقت الذي أقفلت الدول الإسلامية الغنية أبوابها في وجوههم.

■ تتعدّد الطروحات بشأن المنهج المناسب بخصوص المسلم في بلاد الغرب، فهناك منْ يطرح الاندماج، فيما يذهب آخرون إلى اعتماد منهج الاستفادة البراجماتية. كيف تعلقون على مثل هذه المناهج الحياتية؟

– عندما ننعِم النظر في طبيعة تفكير مسلمي الغرب عموماً، وأوروبا خصوصاً، وكيفية انتظامهم في المجتمعات الغربية، ندرك أن هؤلاء ينقسمون إلى نموذجين يتراوحان بين الانحلال التام في بوتقة الثقافة الغربية، أو الانغلاق على الذات والتقوقع باسم الدين والمحافظة والخوف من الذوبان، وما إلى ذلك من التبريرات اللاعقلانية. فلا أولئك ولا هؤلاء يخدمون الإسلام عقيدةً وثقافة، بقدر ما يحكمون عليه باللا جدوى أو التشدّد، بالرجعية أو التطرف! إنّ الإسلام في الغرب في مسيس الحاجة إلى نموذج ثالث من المسلمين الذين يشكّلون حاجزاً وسطاً متيناً، بين منْ يدعو إلى الانحلال والتفسّخ، زاعماً أنّ ضعفنا أو تأخّرنا ناجمٌ عن تديّننا وتعلّقنا بالإسلام، وبين منْ يرى في عزوفنا عن الانخراط في المجتمع الغربي، دراسة أو عملاً أو معاملة، خيرُ وسيلةٍ لحماية هويتنا من براثين الثقافة الغربية المنحرفة والعابثة! كلا النموذجين يقدّمان صورة مشوّهة للإسلام، وقلّما نجد مسلمين يتموقعون وسط هذا المعيار، فينسجون نظرة إسلامية معتدلة غير منساقة، لا إلى أولاء، ولا إلى هؤلاء.

المنهج العقلاني في الاندماج الغربي

■ وما هو في رأيكم المسلك الملائم لترتيب وجود المسلم في الغرب، بحيث يحافظ فيه على ثقافته الإسلامية، وفي الوقت نفسه يراعي طبيعة المحيط الجديد الذي يعيش فيه؟

– إنّ النموذج الثالث الذي يتسم تفكيره بالوسطية، وسلوكه بالاعتدال يعتبر خير ما يُراهِن عليه مسلمو الغرب لتحقيق حيّز جدير بهم ضمن المجتمعات الغربية التي يستقرّون فيها، وهو نموذج راحت تتشكّل بعض ملامحه بصيغةٍ فردية أو جماعية، حيث بدأت تتعالى أصواتٌ، وتنشأ أفكارٌ تنادي بتحسين صورة الإسلام في الغرب، والكشف عن حقيقته المغيّبة أو المشوّهة، وهذه الأصوات والأفكار تشقّ لها منهجاً حياتياً وسطياً، يتجاوز النظرة النفعيّة التي ظلت سائدة لدى أجيال الهجرة الأولى، ويرفض الذوبان أو الاندماج النهائي في ثقافة الغرب.

■ وما هي أبرز ملامح هذه المنهج الحياتي الذي تتحدّث عنه؟

– يتحدّد ذلك المنهج الحياتي في الاندماج الإيجابي أو العقلاني في المجتمع الغربي، وهو اندماجٌ على مستوى ما تقرّه الأدبيات السّياسية والقانونية الغربية من إتقان للغة الدولة التي يستقرّ فيها الأجنبي أو المسلم، وتعرّف على ثقافتها وعاداتها وتقاليدها، واحترام ما ينصّ عليه دستورها من قوانين منظّمة للحقوق والواجبات. في مقابل ذلك يتحتّم عليه التشبث بهويته الدينية والثقافية، التي لا تلغي الآخر، بقدر ما تدعو إلى المعاملة الإيجابية معه. ثم إنّ ترتيب وجود المسلمين في الغرب بشكل دائم وصحي، غير مرهون فقط بالقوانين الغربية المنظمة لهجرة الأجانب أو استقرارهم في العالم الغربي، بقدر ما هو مرهون بمدى نجاعة هذا الوجود بين ظهراني الغرب، حيث الكيفية التي يحضر بها المسلمون في المهاجر، هي التي تحدّد مكانتهم وقيمتهم في عيون الأوروبيين والغربيين، لذلك فهم مطالبون بتحسين حضورهم بالسلوك الحسن، والمشاركة الاجتماعية والاقتصادية الفعّالة، والإسهام السّياسي المستمر، والإنتاج الثقافي الهادف، والتوجيه التربوي الصارم.

الأفكار التجديدية في الوسط الأوروبي

■ في سياق التحوّلات التي شهدها الوجود الإسلامي في الغرب برزت مجموعة من الأصوات "الإسلامية" التي حاولت إعادة التفكير في المخزون الثقافي الإسلامي بما يتلاءم مع الحاضنة الكيانية لأوروبا، والملاحظ أن بعضاً من هذه الأصوات يتميّز بقوةٍ فكريّة وامتدادٍ تأصيل واضح. على المستوى الأوروبي، يبدو طارق رمضان بوصفه مثالاً إشكالياً على ذلك؟

– مما لا ريب فيه، أنّ صوت المنظر الإسلامي الشاب طارق رمضان له صداه الكبير في الغرب، غير أنّ ثمة الكثير من العوامل السّياسية والإعلامية التي ساهمت في إبراز هذا الصّدى وتضخيمه، وهذا لا يعني بالمطلق التنقيص من قيمة هذا الرجل الفكرية، بقدر ما يعني أن هناك مئات الأسماء التي لم تحظ بمثل هذا الظهور الإعلامي، فهي تشتغل في صمت، مكرّسة جهودها لخدمة الإسلام، فكراً وتنظيماً ودعوة، ويعود إليها الفضل الكبير في أهم المكاسب المادية والمعنوية التي حققها الإسلامُ في الغرب، حيث تنشط عشرات الآلاف من المساجد والجمعيات الإسلامية، وتصاغ في تعاون مع الجهات الغربية شتى القوانين والمشروعات والأفكار، التي تهم حياة المسلمين في الغرب.

■ وكيف تقاربون مجموع الأفكار "التجديدية" التي تطرحها النخبة المسلمة في أوروبا بغرض إحداث معايشة هادئة وسليمة مع الوسط الأوروبي؟

– فيما يخصّ التنظير التجديدي للإسلام الذي يمارسه الكثير من المثقفين والباحثين المسلمين في الغرب، إما قصد تثوير ثوابت الدين الإسلامي ادعاءً بأنها لم تعد تلائم طبيعة الحياة المعاصرة، أو أنها تقف عائقاً في وجه تقدّم المسلمين وتغيّرهم إلى الأحسن، وإما تصحيحاً لبعض الأفكار المستقاة مما يصطلح عليه بالإسلام الشعبي، رغبةً في زرع ثقافة التعايش مع غير المسلمين، وإما غير ذلك.. فإننا نرى أن قسماً من ذلك التنظير لا يُغني ولا يُسمن من جوع، فهو لا يعدو أن يكون إلا رتوشات شكلية لا تزين اللوحة الأصلية، بقدر ما تشوّهها وتحدّ من جمالها التلقائي الأول؛ لأن الانخراط السّلمي والفعال للمسلمين في الواقع الغربي، لا يتحقق إلا بالاندماج الإيجابي الذي تمت الإشارة إليه سابقا، وهو اندماج مبني على احترام الآخر، آخذاً في الاعتبار حقوقه. لذلك فإنّ كل منْ يعتقد أن التعايش الحقيقي مع الغرب يبدأ من نزع الحجاب أو اللحية أو ترك الصلاة أو شرب الخمر أو غير ذلك، فإنّ مثله مثل الذي يحرث الصحراء، فلا يحصد منها في النهاية شيئاً؛ لأن تجانس المسلمين مع واقعهم الجديد الذي هو الغرب، لن يتأتى إلى عن طريق التربية القويمة التي تصحّح جملة من الأفكار الخاطئة التي جبلوا عليها، وتزوّدهم بمنهج حياة مستمد من منابع الإسلام الحقيقية، حيث الدين المعاملة أولاً وأخيراً.

التعليم الإسلامي في الغرب

■ برز في الفترة الأخيرة الحديثُ حول محاولات وتجارب جادة للتعليم الإسلامي في أوروبا، وتمّ افتتاح معاهد وكليات أكاديمية بهذا الخصوص. ما هي خلفيات مثل هذه التجارب؟ وهل تجدونها ناجحة من حيث أداء وظيفتها الجديدة؟ وعلى أي نحو تتلقاها الذهنية الغربية؟

– ينبغي بدءاً التمييز بين أنواع ثلاثة من التعليم الإسلامي في الغرب، أولهما يتعلق بذلك التعليم الأسود، أي غير القانوني، الذي يُعطى لأبناء الجالية في مختلف المساجد والجمعيات الإسلامية، أثناء عطل نهاية الأسبوع (السبت والأحد)، وهو يستقطب أعداداً كبيرة من التلاميذ، ويرمي إلى الحفاظ على جانبٍ من الهوية الإسلامية للمسلمين المقيمين في الغرب، عن طريق تعليم اللغة العربية، وتحفيظ القرآن الكريم، وتلقين تعاليم الدين الإسلامي. أما النوع الثاني فهو ذلك التعليم المدعم من قِبل بعض الدول الأوروبية، كما هو الحال بالنسبة إلى هولندا، حيث يمكن الحديث عن تعليم إسلامي قانوني، يخضع خضوعاً كلياً لمقتضيات كلٍّ من التعليم والتشريع الهولنديين، لكنه من جهةٍ أخرى يحظى بإمكان عكس الهوية الدينية أو الثقافية الإسلامية، عن طريق إما تخصيص بعض المواد التعليمية التي تقترن، بصيغةٍ أو بأخرى، بهوية المدرسة وتلاميذها، كالتربية الإسلامية واللغة العربية أو التركية، أو تكريس بعض السلوكيات والمعاملات الإسلامية، مثل أداء الصلاة في وقتها، ومعاملة الإناث في إطار شرعي وغير ذلك، أو تنظيم بعض النشاطات ذات الطبيعة الرمزية، كالاحتفال بالأعياد الإسلامية، وتزيين الأقسام والقاعات بديكور إسلامي، وإعداد أنشطة ثقافية حول الإسلام ودوره الاجتماعي والتربوي في تهيئة الأجيال وغير ذلك. ويتشكّل هذا التعليم من 35 مدرسة ابتدائية وثانويتين. والنوع الثالث هو ذلك التعليم الإسلامي الجامعي العالي الذي يُدرّس في مجموعةٍ من الجامعات والكليات والمعاهد الإسلامية التي تمّ تأسيسها في مختلف الدول الغربية، بمبادرةٍ من مثقفي الجاليات الإسلامية هنالك، وقد بدأ هذا التعليم في الآونة الأخيرة بالاتساع، سواء على صعيد كمية المؤسسات التي تمّ فتحها أو على مستوى استقطاب الطلبة والمهتمين، حيث نشأ قسم لا يستهان به من المثقفين المسلمين في الغرب يعي أهمية هذا التعليم الإسلامي العالي، فراحوا ينتظمون فيه، دراسة أو إشرافا. غير أن ما يشار إليه هو أنه على رغم أن هذا التعليم حقق طفرة نوعية، فتمكن من اجتذاب ثلة من المثقفين والأكاديميين الغربيين، فإنه لا يزال يعاني من تجاهل بعض السلطات الغربية له، حيث يظلّ محروماً من الاعتراف القانوني.

المسلمون في بلاد الإسلام.. وفي الغرب

■ بحكم الطبيعة الاختلافية بين المسلمين في بلاد الإسلام، وأولئك الذين يعيشون في الغرب يطرح البعض مشكلة بخصوص إمكانات التأثير السلبي، وربما الإيجابي، المتبادل بين الطرفين. كيف تنظرون إلى أبعاد العلاقة الممكنة، والمحتملة، بين الطرفين، لاسيما مع وجود اختلافات بنيوية بين المكان "المسلم" والمكان الغربي الأوروبي؟

– إن مسألة الاختلاف بين المسلمين في بلاد الإسلام وإخوانهم المستقرين في الغرب، تقتضي في حقيقة الأمر، دراسة سوسيو – ثقافية، تأخذ في الاعتبار مجموعة من المعطيات التاريخية والسياسية والاقتصادية والتكوينية، وقد لاحظ ذلك مجموعة من الغربيين الذي سافروا إلى العالم الإسلامي، حيث يصرّح البعضُ بأنّ المسلمين الموجودين في بلاد الإسلام يختلفون كثيراً عن أترابهم في المهاجر، خصوصاً على مستوى السلوك والمعاملة، حيث يتميّزون بالأريحية والانفتاح وحسن الخلق والصدق وغير ذلك، في حين يتسم أولئك الموجودين في الغرب بالصرامة المفرطة والانغلاق والتفسّخ والمراوغة والكذب وغير ذلك. وقد تصدق هذه الملاحظة على مسلمي الغرب، لكن بشكل نسبي؛ لأن الصورة التي صُمّمت للإسلام في الغرب، هي صورة مقزّمة، نُسجت بفرشاة الأيديولوجيا ومقصّ الإعلام، فما يُشاع حول تعفن المسلمين وفسادهم، لعله ينطبق على مجموعةٍ صغيرة من الشباب الطائش، وليس على الجميع، ثم لا ينبغي تجاهل البنية القانونية الصارمة للمجتمعات الغربية، التي تحاصر المواطن العادي من كلّ جهة، فيشعر كأنه مأسور، فلا يملك إلا أن يداهن ويراوغ ويتملص من ضغط القوانين، ومع مرّ الأيام يصبح لديه الخروج على القانون، من أجل تحقيق بعض مقتضيات الحياة الضرورية أو الكمالية أمراً عادياً، ولو كان ذلك محظوراً قانونياً.

■ وماذا عن العلاقة بين الطرفين.. كيف ترى مستقبلها؟

– هذا الاختلاف النسبي الناشئ بين المسلمين المقيمين في الغرب وإخوانهم في البلدان الإسلامية؛ ليس له أيّ دخلٍ في طبيعة العلاقة القائمة بين الطرفين، فهي علاقة مبنية على التواصل والتعاون الدائمين، رمزياً ومادياً، حيث يساهم غالبية المسلمين المستقرّين في الغرب بحمل عبء عائلاتهم المعوزة، بل وأنّ معظمهم هاجرَ وهو مسكونٌ بهاجس إنقاذ عائلته من الحاجة. غير أنه من المتوقع أن تتعرّض هذه العلاقة لنوع من الارتجاج في المستقبل القريب المقدر بأربعة أو خمسة عقود، حيث سوف تنتهي الأجيال الأولى التي تربطها أواصر وطيدة بالأوطان الأصلية، فيصبح المسلمون في الغرب ممثلين بالأجيال الأخيرة، التي ولدت وتربّت في الغرب، ولا تقرنها بأوطان آبائها إلا علاقات تذكاريّة ورمزية.

مداخلات

الحجاب و العلمانية.. التحدي والانحلال

■ د. أحمد إدريس الطعان

قال الله عزّ وجل (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ...) . لقد كانت فريضة الحجاب فريضة محكمة أرادَ الله عزّ وجل من خلالها أن يحفظ للمرأة كرامتها من الامتهان، وعرضها من الابتذال، وذلك بسترها لجسدها ومفاتنها، حتى تتمكّن من القيام برسالتها الإنسانية إلى جانب الرجل وتكفّ طرفه عنها لكي لا يطمع في شرفها من في كانٍ قلبه مرض (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) . إن الآيات الكريمة السابقة نسيج واحد يحتوي على مجموعة من الوصايا التي تكرّم المرأة، وتهيئها لحمل رسالتها كإنسان مكمّل لنصفها الآخر: الرجل. فلتغضض من بصرها كما أُمر الرجل، ولتحفظ فرجها مثلها مثل الرجل. ثم تتميز المرأة تبعاً لتكوينها الذي خلقها الله عز وجل فيه ووظيفتها التي أناطها الله عز وجل بها ببعض الأوامر والوصايا: فلا تبدي زينتها إلا لمن سمّاهم الخالق عز وجل، وتضرب بخمارها على رأسها وعنقها وصدرها، وتحرص على أن حالها مبني على الستر دائماً فتدني على جسدها جلباب اللباس والقماش وعلى نفسها وكرامتها جلباب الحياء والفضيلة، وتجدّ في لهجتها وحديثها، وتخفض من صوتها وضحكها، وتختار الكلمة المناسبة مع المقام المناسب بحسب الحال والمآل حتى لا يطمع بها مرضى القلوب. وحين تتحقق المرأة بهذه الوصايا فلا عليها أن تكون عنصراً فاعلاً في الحضارة إلى جانب الرجل تشاركه في محافل العلم والعمل والجهاد والتربية والدعوة ولم يمنعها حجابها من كلّ ذلك ولم يعق حركتها ولم يعرقل مسيرتها.

العلمانية والحجاب

وقد أدرك الغرب أن حجاب المرأة المسلمة - المسلمة فقط – رمز للتحدي يشكل خطراً على إيديولوجيته العلمانية ولذلك قرر منع الحجاب. فشعاراته البرّاقة، وشعارات الثورة العلمانية، كلها ركلت بالأقدام في سبيل منع الحجاب وبدا للناس جميعاً حقيقة طالما خفيت عليهم، وهي أن شعارات الحرية والديمقراطية إنما هي مجرد أوهام وأحلام خدعوا بها. سألت أستاذاً علمانياً ينسب نفسه إلى الفلسفة لماذا منعت الدولةُ التي ترفع لواء العلمانية المرأةَ المسلمة من حجابها؟ فقال لي – ولعله يسترضيني - هذا في الحقيقة شرخ كبير في العلمانية كان عليها أن لا تقعِ فيه، ولكن العلمانية تصحّح أخطاءها ومساراتها دائماً. فقلت: إن هذا الشرخ ليس في المظهر، ولا في كونه مجرد نزوة عابرة، أو خطأ في الممارسة، وإنما هو نتاج للخلل في الأساس العلماني، وهو شرخ في القاعدة الفلسفية التي تقف عليها ظاهرة العلمانية. لقد صدع العلمانيون رؤوسنا في التنكيل بالأنظمة المستبدة، والتغني بالحرية والمساواة والديمقراطية ونحن معهم في ذلك. كما تحدّثوا عن الفاروق عمر على أنه "المستبد العادل" أي أنه الخليفة الذي يمتلك كلّ السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، وهو بنظرهم اتجاه لم يعد صالحاً لهذا العصر، والبديل له بنظرهم دولة المؤسسات العلمانية التي لا سلطان لأحد عليها إلا للعدالة.

والسؤال الآن: إذن لماذا ضاق الغرب ذرعاً بحجاب المرأة المسلمة فكشّر عن أنيابه وأصدر قراراً بمنعه؟ كيف استطاع أن يفعل ذلك ما دامت المؤسّسات العلمانية القانونية هي التي تحكم ولا سلطان لأحد عليها؟ أليس هذا القرار من أحط ألوان الاستبداد، ولا يمكن تصنيفه إلا في مخلفات القرون الوسطى المظلمة؟ لم تنج إذن العلمانية من الاستبداد، والاستبداد الظالم. فإذا كان لا مناص من الاستبداد، إذن فأنْ يكون استبداداً عادلاً خيرٌ لنا، فعادت الحاجة ماسة إلى مثل الفاروق عمر رضي الله عنه.

الفارق بين الإسلام والعلمانية

الإشكالية هنا: إنّ الإنسان هو الذي يحكم، وهو الذي يسيّر المؤسسات وهو الذي يسنّ القوانين، وهو الذي يفسّرها ويؤولها وهو الذي ينفذها، فما أسهل عليه أن يوظف ذلك كله لخدمة مصالحه ومنافعه، وخصوصاً في هذا العصر الذي يلعب الإعلام والدعاية دوراً بارزاً في غسل الأدمغة، وترويج الأفكار، وتغليب بعضها على بعض بحسب الحال والظرف والمصلحة. ومن هنا فالشعارات العلمانية الرائجة اليوم مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان هي شعارات ظرفية تخدم الإنسان الأقوى - الإنسان الأبيض - وتوظف الآخرين لخدمته، وفي الوقت الذي تصبح خطراً عليه تُداس بالأقدام وتُركل بالنعال، وظاهرة الحجاب مثال على ذلك. ولذا فالقول إن العلمانية وقعت في خطأ - مجرد خطأ - حين منعت المرأة المسلمة من حجابها هو محاولة للخروج من عنق الزجاجة؛ لأن الممارسة العلمانية محكومة بشيئين هما: الإنسان وطغيانه الممكن، بل الغالب، والنفعية البراجماتية، والأثرة الظاهرة في السلوك الإنساني. وفي هذه الحالة، فالقضية ليست مجرد خطأ وإنما انهيار في البنيان العلماني من أساسه.

العلمانية لها قيمها المعلنة، والأديان كذلك، وإذا كانت الأديان تعدّ منْ يخرج عن عقائدها كافراً، فإنّ العلمانية كذلك تحكم عليه بالنفي والإقصاء أو التخلف والرجعية أو الإرهاب، فالعلمانية في هذه الحالة تتحوّل إلى دين علماني له قيمه وأصوله ورجاله بل وطقوسه أيضاً. والقول بأن العلمانية لا تنظر إلى نفسها على أنها مقدّس يحرّم المساس به، ولذلك فهي تجدّد نفسها وتصحّح أخطاءها دائماً عبر صيرورة مستمرة.. كلام جميل ومعسول، ولكن الدين كذلك يقول، فالإسلام يجدّد نفسه دائماً "إن الله يبعث لأمتي على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها". فالعلمانية إذن دين متجدّد، والإسلام أيضاً كذلك. والفارق هو أن الإسلام له ثوابته التي لا تُمس بينما العلمانية تدّعي أنها متلوّنة ولا ثوابت لها إلا الواقع بتغيراته وأنماطه المختلفة.

ولكن الإسلام لا يرغم الآخرين على أن يمارسوا شعائره، فهم أحرارٌ في دار الإسلام في ممارسة شعائرهم والإسلام يحميهم، بينما العلمانية في دارها ترغم المسلمة على ممارسة الطقوس العلمانية في السفور والانحلال.

■ كلية الشريعة - جامعة دمشق
ahmad_altan@maktoob.com